

الفصل الحادي عشر

لَبَّيْكَ أبا أيوب!

وعاد ركب الحاجّ من المدينة، ولم يكن فيه النعمان؛ فقد حضره أجله في مكة قبل أن يُجِلَّ من إحرامه^١ وقبل أن يدخل المدينة ليُقَصَّ رؤياه على ابن سيرين، ويعرف تأويلها، ولم يقصّها عليه مسلمة أو يلتمس لقاءه؛ فقد كان من رُزْئِهِ بصاحبه في هَمٍّ، وكان من الرغبة في سرعة الرّواح إلى دمشق ليرى أمه، بحيث لم يمكث في مدينة الرسول إلا بمقدار ما زار ووَفَّى النذور وفَرَّقَ الأعْطِيَا؛ ثم نادى مناديه في القافلة بالرحيل. وبلغ دمشق، ولكنه لم يرَ أمه؛ فقد ودَّعَتْ أمّه دمشق وتركت دنياها جميعاً قبل أن يعود مسلمة ولدها من حجّته!

وقعد مسلمة أياماً يتقبل العزاء؛ ولكنه لم ينسَ منذ أول لحظة هبط فيها الحاضرة أنّ عليه حقاً لرفيقه الذي خَلَفَهُ تحت الجنادل في صعيد مكة؛ فأرسل رسولاً إلى ولده عتبية في الرقة، وأرسل معه لأسرة الشهيد مالاً وأحمالاً ...

كانت جيوش الفتح قد بلغت شأواً بعيداً في الشرق والغرب: قد قَوَّض جيش المغرب عرش الإسبان، وحاز الأندلس من أطرافها، وأخذ يتهدّى للزحف شرقاً نحو بلاد إفرنسة، وما يليها من أرض الروم.

وبلغت جيوشُ المشرق قَرْوَيْنَ، ونفذت إلى شواطئ بحر بُنطش. واتخذ أسطولُ العرب قواعد في ثغور بحر الروم يتهدّى منها للوثبة؛ وما تزال بعض سفنه تغدو وتروح على بحر بُنطش وخليج القسطنطينية، فتصيب من ثغور

^١ مات قبل أن ينتهي من شعائر الحج.